الفصل الرابع عشر

ذهاب السلطان سليم إلى دمياط ورشيد والإسكندرية

بلغت مائتا سفينة من الأسطول العثمانى بولاق بمصر، وكان الاحتفال بذلك عظيمًا وزينت كل السفن، واستقل سليم السفن فى عشرة آلاف جندى فأطلقوا المدافع والبنادق ابتهاجًا. وبينما كانوا فى نزهتهم يشاهدون مائتى مدينة على شاطئ النيل جهة دمياط بلغوا ميناء دمياط، وهو على بعد خمسمائة ميل. وهناك وبالقرب من الشيخ أبى الفتح نزل السلطان سليم، وأهدى الأعيان عشر خزائن إلى السلطان سليم فوزعها صدقات على الناس جميعًا، وأطلقت المدافع طلقة من قلعة دمياط، وبلغ سليم مَرَج البحرين؛ فتوضأ وصلى فى الموضع الذى التقى فيه موسى ـ عليه السلام ـ بالخضر، ثم مضى إلى دمياط ثانية، وزار جميع أولياء الله، وطلب المدد من بركاتهم. وفى اليوم الذى وصل فيه رشيد بطريق البحر المالح أطلقت المدافع تحية وابتهاجًا من قلعة التينة، وأقام سليم فى مدينة رشيد؛ فتقدم إليه جميع الأعيان بالهدايا، وسلموه مفاتيح القلعة، وقام بزيارة كوم أفراح، وزار جميع كبار أولياء الله، ودخل حمّام عباد الله، واغتسل فيه، وخلوته الحالية موصدة وإذا ما فتحت لمريض شفاه الله. ومن هناك ركب هو ومن معه الزوارق وشرب من مرج البحرين فى رشيد، ولما دخل ميناء الإسكندرية وهى على بعد ستين ميلاً (العظمة لله) أطلقت المدافع من خمس قلاع، ومن سبعمائة سفينة من الأسطول العثمانى، وبقيت قلعة الإسكندرية كأنها نار النمرود.

وبين الميناءين اتخذ سليم لنفسه مقرًا، وقدّم له جميع الأعيان مفاتيح خمس قلاع وهدايا لا تدخل تحت حصر. ونال كل منهم منح سلطانية.

ذكر خزائن السلطان الغورى فى قلعة الإسكندرية

حينما سمع الغورى بظهور أمر السلطان سليم سأل المنجمين فى مصر أن يحسبوا له طالعه وطالع السلطان سليم.

فقال كل المنجمين والرَّمَّالين وقارئى الكف وعلماء الجفر: إن ما فكرت فيه يريدك بالسوء وإلحاق المضرة بك.

هذا ما قاله جميع المنجمين وعلماء الجفر للسلطان الغورى، فهيأ الغورى نفسه لمواجهة هذا الأمر؛ فوضع كل خزائنه ونفائسه فى خزائن قلعة الإسكندرية، وكان فى ميناء الإسكندرية على الدوام خمسون سفينة حربية، وتآخى الغورى مع السلطان يعقوب فى بلاد المغرب؛ فاستقر الرأى على أن الغورى إذا ما هزمه سليم فرّ إلى المغرب بهذه السفن ومعه كل أمواله وبعد ذلك يعود لغزو مصر، وبناء على ذلك كانت كل خزائنه ونفائسه فى الإسكندرية ولكن العبد يدبر والله يقدر.

وقبل أن يمضى سليم إلى مصر جعل وزيره پيرى باشا واليًا على اسطنبول وأمره أن يضرب الحصار على الإسكندرية بسبعمائة سفينة شراعية وبعد أن قطع سليم المراحل مرحلة تلو الأخرى اشتبك مع الغورى فى القتال بالقرب من مصر، وغاب الغورى عن حومة الوغى، وبقيت كل أمواله فى الإسكندرية، ومضى سليم إلى الإسكندرية وفتح أبواب الخزائن وفى أول معركة أخرج سبعة وخمسين ألف كيس من مال مصر، واستولى على اثنى عشر كيسًا من الذهب الخالص، وفى البداية هزم الغورى فى سهل مرج دابق بالقرب من حلب، وبينما كان يتعلق بأذيال الفرار وقع علم النبى ﷺ فى يد السلطان سليم؛ فتفاءل بذلك وحمل العلم على بعير سبعة أيام. وتسلمه جندى يُسمى الحاج على، وبذلك أصبح حمل علم الرسول ﷺ تقليدًا مرعيًا؛ كما أُخِذ من قلعة الإسكندرية علم أحمر عليه صورة أسد وعبارة «نصر من الله»؛ كما استولى السلطان سليم على صندوق مرصع بالجواهر به السِنّة الشريفة التى سقطت من أسنانه ﷺ فى غزوة أحد، وشعرات من شاربه ولحيته الشريفة، ومكحلته ومروده، وقطعة من حصير وأبريق وضوئه، وسبحته، وقطعة من نعله، وعصاة من الخيزران وخفه، وخرقتان شريفتان له من ليف النخيل يقترب لونها إلى الصفرة، والأخرى من القطن الأبيض، وسرج، وسيف، وغطاء حمل جمل، وعمامته الشريفة، وقلنسوة بيضاء، وكلها طبقة فوق طبقة فى ذهب على ذهب، وذلك كله فى صرّة مزركشة، وقد كتب عليها هذه مخلفات رسول الله ﷺ، فمسح سليم بكل هذه المخلفات وجهه تبركًا وقال: شفاعة يا رسول الله. كما أنه وضع عمامة يوسف الصدّيق على رأسه التماسًا للبركة ثم حفظها

فى الصندوق المرصع بالجواهر، كما رأى مدية كان يوسف الصديق يخط بها على الجدار فى سجنه ليتعرف بها مواقيت الصلاة، والبساط الذى كان يصلى عليه.

وأيام خلافته كان يلبس عمامة يوسف، ثم ابتكر العمامة التى تُسمى سليمى، وسميت باسمه، لأن السلطان أبو الفتح وولده با يزيد ولى كانا يلبسان العمامة العُرفى، أما هو فكان يلبس عمامة يوسف والسليمى، إلا أنهم وجدوا فى خزانة الإسكندرية عمامة قلاوى ولعل اسمها مستمد من السلطان قلاوون لأنها بقيت من عهده، ووجد كذلك سيوف الخلفاء الراشدين وثياب ملوك السلف وأسلحتهم وخمسين ألف بندقية مرصعة وعشرون ألف سيف مصرى، وعشرة آلاف درع، وعشرين ألف قوس، وسهام لا تدخل تحت حصر، وكنائن ودروع الفرس وأربعون ألف ترس حلبى ومثل عددها من التروس الدمشقية وعشرة آلاف نيزك، وعدد لا يحصى من الطبر الدمشقى وعشرون ألف درع وثلاثون ألف خوذة وعشرة آلاف طبق من الخزف المرتبانى من صنع الغورى نفسه، وما كان هذا النوع من الخزف فى أى بلد سوى مصر، وكان كلما نظر إلى ولى من أولياء الله يصنع هذه الأطباق المرتبانى وكان يقدم هذه الأطباق الخزفية هدية إلى الأعيان، وكان هؤلاء الأعيان يردون على ذلك بإهداء الذهب إليه على قدر ما يهدى إليهم من هذه الأطباق، وكان الغورى يصنعها طمعًا فى الحصول منهم على هذا الذهب، كما أخرج سليم من خزينة الإسكندرية أشياء شتى لا يتسع المقام لذكرها، وقد ملأت بها السفن العثمانية وأرسلت إلى الأستانة، وكان السلطان سليم فى الإسكندرية يزور من الأولياء مَن بقوا على وجه الحياة ويدعون له بالخير، وكان يطلب المدد من أرواح الموتى منهم، كما قدم مصر هو وسفنه من العقبة واحتفل بهذا القدوم، وفى ذلك الأسبوع كان الاحتفال بوفاء النيل فى قصر أم القياس، وهذا الاحتفال مذكور فى تواريخ مصر، وقد شاهد هذا الاحتفال السلطان سليم. أراد سليم أن يتخذ من مصر حاضرة له، غير أن أعيان الدولة وعلماءها لم يؤيدوه فى هذا.

* * *